الكتاب المفقود

قصة من السودان

بقلم : محمد صالح ابراهيم

كان يمشي الهوينا في طريق « الأربعين » . وهو طريق غير مزدحم . ولو لم يكن كذلك ماكان لشعبان خام أن يطرقه في مغدى أو رواح . فهو يتحدد صباحا له في ذهابه الى مكتبه في الصباح ولذى عودته الى بيته ظهرا .

وفي منتصف الطريق كان في جهاد عنيف مع نفسه ، لقد ذكر أن امرأته حضرة كانت قد طلبت منه أن يعطيها شيئا ماقبل خروجه ، فخرج دون ذلك . وهو الآن يحاول عبثا أن يتذكر ما هو ذلك الشيء .

وتوقف لحظة قبل ان يلج مكتبه ليتلقى تحية الصباح . فقد نهض البواب متثاقلا وانحنى مكرها وارسل تحيته في غير ابتسام .

وجلس باشكاتب شركة الخامات الى مكتبه . ودس يده في جيبه الأيمن فخرجت بمنديل . ثم دسها في جيبه الأيسر فخرجت بمنديل آخر ، لقد كان يبحث عن شيء غير المناديل ..

ولم يكن قد حضر احد من الموظفين بعد ، فنظر في ساعته وأدرك أنه قد جاء قبل موعد العمل بعشر دقائق ولم يكن يعلم ذلك . لابأس . تناول قلما وقرطاسا وأخذ يرسم خطوطا ودوائر لا معنى لها يقطع بها الوقت .

ولما رفع رأسه ونظر في ساعته كان قد مضى من الوقت نصف الساعة ، وكان الموظفون وقد تكامل عددهم قد بدأوا بشاطيم البومين بقراءة الصحف .

« يا الهي . لقد حدثته اربعين مرة الا يأخذ شيئا من مكتبي حتى آذن له فيما هذا . ما هذا ؟؟ أف .. لقد كنت ألقي بنفسي من النافذة فأستريح من هذا المخلوق . »

والمخلوق هذا أحد صغار الموظفين . ولم يلاحظ شعبان خام حين ألقى كلامه هذا أن النافذة تقوم بين شدقيها حواجز من حديد . وقبل أن يهدأ فورته عاد يقول « عجيب والله امر هذا الولد يضع يده على مكتبي متى يشاء ويأخذ منه مايشاء . ولسوف تفقد كل شيء مادام يوسف محشورا بينا في هذا المكتب ، وهأنذا لا أجد نظارتي . لقد حلمتها و .. » .

وهنا أمسك شعبان خام عن الكلام . فقد أحس النظارة في جيبه . ولم يكن

يوسف موجودا ، ولعله كان في ذلك الحين محشورا في المقصف يصيب شيئا من عصير الليمون ، بيد أن زملاءه كان منهم العاقل يرتاب في سلوك يوسف ويشفق عليه ، وكان منهم الحاسد يتشفى له العثرة وسقوط الشأن ، كما كان منهم الخائف على شعبان حام وعلى جواهر الحديد ..

ودق جرس التليفون ورفع الباشكاتب السماعة الى اذنه الكبيرة « ... نعم سعادتك .. حالا سعادتك .. حاضر سعادتك . »

ووضع السماعة بصوت مسموع ونهض يهرول الى مكتب مدير الشركة وهو يقول « المدير عايزني . حمدوا بالكم من التليفون .. من مكتبي .. من نظارتي .. »

وفي هذه اللحظة عاد يوسف من المقصف ، وحلا الجو للموظفين كبيرهم والصغير ، فحلوا بينهم وبين العمل ، واخذوا يتجادلون الحديث ويتقاذفون بالكلمات ويضاحكون رئيسهم ويعيرونه بالتسرع وعدم التريث والاناة وغير ذلك من السمات التي تجعل للمرءوس من شخصية الرئيس لسانا طويلا حادا ..

ثم أكب كل على عمله .. فقد عاد شعبان حام بسلام وانقطعت الحركة والكلام .

***

مضت برهة وجيزة كان الباشكاتب خلالها منهمكا في مراجعة بعض الرسائل ، ثم قطع حبل السكون صائحا مهتاجا :

« الكتاب ! الكتاب ! أين كتابي ؟! »

وتطلع الموظفون بانظارهم نحوه وهو يبحث عن كتابه في كل مكان ، تحت الدفاتر وفي أدراج مكتبه وفي جيوب بدلته وفوق أرض المكتب . ثم وجه الخطاب الى العيون الشاخصة اليه « هل فيكم من أخذ كتابي ؟ هل فيكم من رأى كتابي ؟ لقد كان امامي هنا منذ الصباح » .

وتحول عنهم بوجهه الى يوسف :

ـ أنت أخذت الكتاب .

ـ انا لم آخذه .

ـ افتح درجك .

ـ قلت اني لم آخذ الكتاب .

ـ وأنا متأكد انك أخذته ، وهو حتما في هذا الدرج الذي تأبى أن تفتحه مخافة أن تفتضح أمرك . ولكنك وقعت في فخ لا سبيل الى خلاصك منه » .

قال ذلك واندفع بحماقة وحزم الى مكتب المدير بالرغم من توسلات الموظفين اليه وقد أيقنوا أن يوسف قد أسرف في العبث الى درجة لا تليق بالموظفين .

وسرعان ماراعهم لما اقتحم المدير وفتح الدرج ولم يجد أثرا للكتاب فيه . وكان قد حان موعد الانصراف ولم يبق هناك مجال للبحث والتحقيق .

كان شعبان حام يتحدث الى نفسه وهو يمشي الهوينا عائدا الى داره ، وقد نسي كل شيء الا أمر هذا الكتاب المفقود . فقد بلغ من اهتمامه به أنه يحمله كل يوم الى المكتب ويحس أنه جزء متمم له . لقد كان مادى العصب والضبط والحقد على يوسف ، واغترب من داره وهو مازال ضبطا محبطا ولكنه كان قد انتهى الى شيء يشبه القرار وصمم على تنفيذه ، « غدا سنرى مايعمله المدير ليوسف ، فان لم يقتص لي منه بالعقاب الصارم فاني سوف استقيل ، سوف أرفع الأمر الى القضاء .. »

استقبلته حضرة بوجه أبعد ما يكون عن البشاشة ، ولكنها لاحظت أن وجهه ، على غير العادة ، مكفهر فسألته عن ذلك فقال لها :

ـ اني اليوم مشغول البال ، وما بالك انت واجمة ؟

ـ لأنك صرت تنساني .

ـ كيف انساك ، وهل ينسى الرجل روحته ؟

ـ ألم أطلب اليك في الصباح أن تعطيني جنيها قبل خروجك ؟

ـ حقا ، حقا ، لقد تذكرت .

ـ فلماذا اذن لم تعطنيه ؟

ـ آسف ، لقد نسيت وطلع من بالي .

ـ وكذلك نسيت الكتاب .

ـ ماذا ؟

ـ الكتاب الذي تسهرا فيه ليلا ونهارا .

ـ كلا ، لم انسه ، ولكن فقد مني بالمكتب .

ـ انت نسيته هنا في البيت .

ـ ماذا تقولين ، في البيت ؟

لقد أسقط في يده وكاد يغمى عليه اذ كيف انه لم يحمل الكتاب معه الى المكتب في الصباح كالعادة ، ثم كيف ينسى ذلك ، فيتهم يوسف بسرقته ويوسف بريء ، لقد صمم أن يعيد هذا الكتاب الذي أضر به من حيث اريد به النفع ، فلا يطالع فيه مرة أخرى ، بل لا يحمله الى المكتب مرة اخرى ، أجل لن يحمله الى المكتب بعد ذلك أبدا ..

●●●

هادا كان اليوم التالي نعى شعبان حام أن لو لم يكن هذا اليوم من ايام الله ، ولكنه الكتاب . لقد جلس في مكتبه يفكر دون انقطاع ، وبينما هو كذلك استدعاه المدير للتحقيق مع يوسف في تهمة السرقة الموجهة اليه .

تعلق شعبان حام بذاكرته متلمسا طريقا للخلاص من هذا المأزق ، فالقى ذاكرته تخونه هذه المرة كما خانته في كل مرة ، ومع ذلك فقد صمم على الا يبوح بالحقيقة فانها أشد مرارة وقسوة عليه من أي شيء آخر . أجل لا ينبغي ان يذكر لأحد أنه وجد الكتاب بداره ، لاينبغي مطلقا ان يفعل ذلك ، بل انه لايستطيع أبدا أن يبدي الاعتذار او يحتمل التوبيخ ، تلك فضيحة ينبغي

أن يضع حاجبيه عليها ، ويعمى أمرهما على رئيسه المدير حتى لايتسخط عمله ، فلابد اذن ان يمثل الاتهام فى قوة واصرار وفى كذب وبهتان حتى النهاية ولكنه مع ذلك ألفى نفسه يتحاذل عنه وذاكرته تهرب منه عندما سأله المدير

- اين وضعت كتابك امس ؟

- فى درج يوسف .

- انت وضعته فى درج يوسف ؟!

- آسف ياسيدى - لقد ظننت أن يوسف أخذه من مكتبى

- ظننت ؟! لقد كنت بالأمس تؤكد

شعر شعبان حام بالطرق الشديد ، واحس انه لايستطيع الصمود - فهاهى ذى قواه قد بدأت تخور ، فحاول أن يوصد باب التحقيق حتى اندى فى ضعف ووصل لا سبيل الى دفعهما عنه بمحاولة عن التشكوى وانه قد سامح يوسف هذه المرة ، ولكن المدير رد عليه فى حزم ان ليس من حقه هنا أن يسامح ، وان حادث سرقة فى شركة لها سمعتها الطيبة فى البلد لايمكن التسامح فيه ، ثم وجه اليه السؤال

- قلت لى أمس أنك حملت كتابك الى المكتب ، وكنت تقرأ فيه امام الموظفين ثم افتقدته بعد ذلك بقليل

- اليس كذلك ؟

- نعم سعادتك

- واتهمت يوسف ولم تعثر على الكتاب معه ، هل اتهم شخصا آخر ؟

لا - مادتك

ثم اتجه المدير الى يوسف بوجه اليه السؤال .

- ان التهمة قوية ضدك ، ولقد فرضت رقابة شديدة عليك أمس قبل انصرافك من عملك ، ان الكتاب لم يخرج معك ، ومعنى ذلك أنه موجود هنا بالمكتب ، فى المكان الذى حياته فيه .

- انا لم آخذ الكتاب ياسيدى

- اذن هل تعرف من أخذه ؟

- كلا ياسيدى

- ومع ذلك فانى متأكد ان الكتاب لم يخرج من دار الشركة - انه موجود هنا وعليك أن تعرف مكانه .

- نعم يا سيدى ان الكتاب موجود هنا .

وعندئذ ظن شعبان حام أن يوسف يهذى ، فارتاحت نفسه لهذا الهذيان فهو يعلم أن الكتاب موجود الآن بمنزله

وأضاء يوسف والابتسامة تملأ وجهه

- ذلكم هو الكتاب .

وانتقلت عين المدير وعين شعبان حام الى حيث أشار يوسف بيده ، وحينئذ انتفض شعبان حام فزعا مضطربا ، ودون وعى منه انتزع الكتاب من يد يوسف بشدة وانفعال صارخا

- يا الهى ، أحقا أنى سحبت ايضا بحملته معى اليوم ؟! اف .

- سأله المدير

- واى كتاب هذا الذى صرفنا عن أعمالنا الى هذا الحد ؟ .

فأجاب شعبان حام

- هو يا سيدى كتاب يحوى أربعين طريقة لتحسين الذاكرة !! .